عن حياة مُراهقات قَلَبَتْها الحربُ وغيَّرها اللّجوء والتهجير

سعدى علوه

لم يكُن هناك بصيص نور عندما تَركتْ سحر «كونتينر» الحديد الذي جَعَلَهُ المهرِّبُ سَكَنَها مع خمس مُراهقات أخريات على الحدود السوريّة التركيّة[1]. طلبت ابنة الـ 16 عاماً من صديقتها أن ترافقها إلى المرحاض الذي يبعد عن المنامة نحو مئة متر. انتظرت الفتيات الثلاث عودةَ سحر وصديقتها لأكثر من 10 دقائق إلى أن رجعت الأخيرة لاهثة: «المهرِّب اغتصب سحر واعتدى عليها». لم تتجرّأ أيٌّ منهنّ على الذَّهاب لاستطلاع ما حدث مع رفيقة درب التهريب خوفًا من تعرضهنّ للاعتداء نفسه، فهنّ وحيدات عاجزات، دفعت عائلاتهنّ نحو 3000 يورو أو دولار للمُهرِّب كي يقطع بهنّ الحدود إلى تركيا ومنها عبر البحر إلى اليونان كمحطّة أولى نحو أوروبّا. صديقة سحر نفسها هربت قبل أن يَعلم المُغتصِب أنّها شاهدت جريمته، جلستْ على الأرض تبكي عجزَها عن إنقاذها، وحتّى عن رفْعِ صوتها طالبةً النجدة «خفت يغتصبني كمان». كانت سحر تسعى للِّحاق بوالدها في ألمانيا، ولكنّ أحداً لم يعرف كيف انتهت رحلتها ومعها قصّتها. ولا أحد يعرف عدد المُراهقات أو النساء اللّواتي لقينَ

(1) وقعت هذه الحادثة في صيف العام 2016.

المصيرَ نفسه وهنّ يهربْنَ فرارًا من الحرب وأهوالها نحو بلادٍ تؤمِّن لهنّ الحدَّ الأدنى من حقوقهنّ ومعها حقهنَّ بالحياة.

هذه الحادثة روتها ياسمين لنا (16 عاماً) في مقرّ إقامتها حاليّاً في مدينة لايبزيغ الألمانيّة[2]. تقول إنّها وفور وقوع جريمة الاغتصاب اتَّصلت بعمّها الذي كان على علاقة جيِّدة مع رجال الحدود وأخبرته بما حدث. اتَّصل الأخير بالمهرِّب وهدَّده «هلأ بتقطع الحدود بياسمين ورفيقتها أو ما بيطلع عليك الضو». وفعلًا دقائق ونادى المهرِّب المُغتصِب على ياسمين وصديقتها وقطع بهما الحدود ليلًا من دون الفتيات الأخريات اللّواتي التقيتا بهنّ بالصدفة في مقرّ التهريب. ما زال صوت ياسمين لغاية اليوم، وبعد مرور أكثر من 3 سنوات على الحادثة، يرتجف وتلهث وتعود دقّات القلب السريعة تضرب في صدرها «كتير تعذّبنا بس ما حكينا ولا كلمة، وحتّى ما خلّيناه يعرف أنّو نحن عارفين بجريمته». وحده صوت عمّها الذي بقي يُهاتفها طوال الطريق مَنَحَها بعض الطمأنينة «وإلّا متنا من الخوف». كان يطلب من المهرّب أن يُعلمه بالمسافة التي قَطَعَها بالفتاتَيْن وبمكان تواجدهما لحظة بلحظة، إلى أن سلَّمهما إلى قريبةٍ لهما في تركيا. لم تَعرف ياسمين شيئاً عن سحر الضحيّة «ما بعرف أيّ شي عنها، بس صورتها ما بتروح من راسي، كلّ يوم بفكِّر فيها، كلّ يوم بخاف، كلّ يوم بحسّ قدّيش كنّا عاجزات عن حمايتها أو الوقوف إلى جانبها، وكلّ يوم بسأل حالي إذا كان قرار إرسالنا وحيدات في رحلة التهريب صائباً على الرَّغم مِن أنّي كنت محظوظة ووصلت بالسلامة».

تختلف قصص النساء اللّاجئات، سواء المُراهقات من بينهنّ أم البالغات، وظروفهنّ، وكيفيّة تأثير الحرب على حيواتهنّ. لكلٍّ واحدة رواية مُختلفة في تفاصيلها عن الأخريات، وهي إن تقاطعت ففي صعوبة المسار الذي خضْنه للنجاة من الحرب، ليجدْنَ أنفسهنّ في غربة اللّجوء، والانقطاع عمّا كان، واللّاوضوح في ما سيكون عليه المستقبل. اللّجوء نفسه صاغ لكلٍّ منهنّ حكايةً جديدة تختلف عن حكاية الأخرى. والحياة التي أقفلت أبوابها أمام لاجئة هنا، فتحت نوافذ أمل وتغيير في مستقبل آخر، وقَلبت مُعادلاتٍ في يوميّاتِ وسلوكيّاتِ ثالثة، وفقاً للظروف التي عاندت أو ساعدت كلًّا منهنّ. ولكنهنّ،

(2) أُجريت المُقابلة صيف 2018 ولم تُنشر أبداً قبل هذه الورقة.

ومن دون استثناء، يختزنَّ في دواخلهنَّ الكثير من الخَيبات والأسى والصعوبات. حتّى الناجيات من بينهنّ لم ينفذْنَ من دون أكلافٍ جبّارة.

ونجدُ أنّ المُراهقات يخضْنَ معارك كبيرة لانتزاع حقوقهنَّ بالحريّة والتعليم والتطوُّر وتبلْور شخصيّاتهنّ «يعني نحن منكون مطحونات من الحرب، لكنّ ذلك لا يشفع لنا عند عائلاتنا، إذ نبقى بنظر الأهل والأشقّاء الذكور معرَّضات للخطأ»، يحصل ذلك وفق المفهوم التقليديّ الذي يأسرهنّ تحت ستار الخوف عليهنّ. وكثيرات هنّ المُراهقات والفتيات اللّواتي مُنعْنَ عن الدراسة واستكمال تعليمهنّ العالي بسبب النظرة التقليديّة السائدة للأهل من جهة، والتخوُّف من تأثير المُجتمع اللّاجئ فيهنّ من جهة أخرى «دايمًا في تخوُّف من تفلُّت المرأة من مفاهيم الأسرة والمُجتمع»، وفق ما أكّدت أكثر من لاجئة مُراهِقة أو بالِغة تمّت محاورتهنّ. وأكّد بعض هؤلاء أنّ الانتقال إلى بيئة مختلفة عن بيئة بلد المنشأ عزّز مخاوفَ الأهل من البيئة الغريبة وغيّر في تفكيرهم ودفع معظمهم نحو التشدُّد الذي لم يكُن ملحوظاً بهذه القوّة في سوريا مثلًا، سواء للسوريّات أم للفلسطينيّات اللّواتي لجأن منها إلى أوروبا أو لبنان. ونلمس من تجارب كثيرات كيف استعملتهنّ أسرهنّ مصدرًا لتحسين ظروف الأسرة عبر تزويجهنّ بذريعة حمايتهنّ كإناث، ولكنْ مقابل المال، تحت مُسمّى المَهر، المشروع شرعًا وتقليديّاً.

مَهْرٌ مُقابِل مُغادَرة سوريا

كانت ربى في الـ 14 من عمرها عندما اضطرّت عائلتها لاتِّخاذ القرار بالنزوح من ريف حلب إلى حمص استعداداً لدخول لبنان تهريباً[3]. كان والدها قد زوَّج شقيقتها الكبرى (16 عاماً) قبل 4 أشهر، حين فتحت معها والدتها موضوع النيّة بتزويجها «منأمِّن عليكي وبتبقي مع ابن بلدك»، لتبلِّغَها قرارَ الأب بتزويجها «رح يساعدنا مهرك حتّى نفلّ ع لبنان، ونحن ما منعرف شو ناطرنا، وانت بنت منخاف عليكي». قبضت العائلة 600 دولار مهراً لتزويج ربى. بعد أسبوع على زواجها ومُغادرة أهلها المنطقة التي تسكن فيها، قالت لها والدة زوجها «بتحضري حالك بكرا الصبح تنزلي مع البنات ع الشغل». تشغّل عائلة الزوج بناتها في الزراعة مقابل بدل يومي «كان زوجي يضلّ نايم وأنا روح إشتغل مع

(3) لجأت عائلة ربى من سوريا إلى لبنان في العام 2018، وأجريت المُقابلة مع ربى في خريف العام 2021.

أخواته». عندما تعود من العمل تقبض الأم جناها في حال عدم وجود زوجها في البيت «قلها خليلي شويِّة مصروف، فتجاوبني دفعنا حقّك لأهلك وما اشترولك أيّ أغراض لبيتك، أخدوا كلّ المصاري وراحوا». كانت تستردّ المال الذي دفعوه مهراً لها.

بعد مرور 3 أشهر على زواجها بدأت مشكلات جديدة لأنّها لم تحمل بطفل «وكمان ما بتجيبي اولاد»، لحقتها العبارة كتُهمة. مع بلوغها عامها الخامس عشر وشهرَيْن، وَضعتْ ربى طفلًا ضعيف البنية مريضاً «كنت كلّ فترة حملي أتعرّض للعنف وإشتغل بالحقول». بعدما مات الطفل، وكان عمره شهراً، زادت مصاعبها «أولادك ما بيعيشوا»، صارت تلك العبارة التي يقولها لها زوجها وأمه تلازمها عند كلّ إشكال. «وما قدرت حبَّيته أبداً». تقول عن زوجها لتؤكِّد أنّها بدأت تخطِّط للهروب ممّا أسمته «الجحيم». بعد عام من مُحاولة أمّها ثَنْيها عن طلب الطلاق من زوجها على الرّغم من إخبارها بكلّ ما يحصلُ معها، وافقَ والدها على مُغادرتها منزل زوجها «ما رَح يطلّقك ونحن مو حدِّك». وهكذا منحوا قريبًا لهم 200 دولار لترتيب تهريبها «لاقتني أمّي ع حمص وجابتني ع لبنان».

في عكّار، حيث انضمّت لعائلتها في أحد مخيَّمات السهل، عادت ربى للعمل في الزراعة «أبي بيشغِّلنا نحن وأمي بالمزارع». نسألها عن شقيقاتها الصغيرات اللّواتي تتراوح أعمارهنّ من 11 سنة إلى 14 سنة اليوم، وهنّ ثلاث شقيقات «تنتين بيشتغلوا بالزراعة وواحدة بتساعد زوجة صاحب الأرض ببيتها». لم يرسل والدها أيًّا منهنّ إلى المدرسة «حتّى أنا بعتني دغري ع الشغل». يقبض الأبّ كلّ نتاج العمل، حتّى ذلك المخصَّص للأم «قال بدّه يشتري بيوت لأخوتي الشباب بسوريا». تتروح أعمار ذكور العائلة ما بين 10 إلى 17 سنة، وكلّهم يعملون في الزراعة «والكبير أوقات بيشتغل بالعتالة».

حظوظٌ أوفر للمُراهقات

مُقارَنةً بين المُراهقات اللّاجئات إلى لبنان وبين اللّواتي سعفهنَّ الحظّ باللّجوء إلى ألمانيا، نلحظ فَرقاً جوهريّاً في فُرَص التطوُّر والتعلُّم. فالعائلة اللّاجئة التي تقبض المال في ألمانيا عن كلّ طفل/ة لا تَجِدُ نفسها مضطرّة لاستجلاب المال عبر أطفالها وبالتالي تشغيلهنّ. كما أنّ القوانين التي تمنع عمل الأطفال في ألمانيا مطبَّقة بشدّة، فيما يُفتقَر ذلك في لبنان. وكذلك نلمس الاكتفاء الاقتصاديّ للّاجئين في الغرب بسبب مساعداتِ

الدولة المُضيفة، بينما يصرّ اللّاجئون في لبنان على عدم تلقّيهم ما يكفي ممّا يضطرّهم للعمل جميعاً «صغارًا وكبارًا» كما تؤكّد ربى «من وين بطعميكم»، يقول لها والدها، بينما تفضح نيّته شراء بيوت للذكور ادِّخاره للمال المُجنى «أصلاً ما بِأَمِّنْ لنا حياة كريمة، وعايشين بالتقشُّف».

ظروفُ العائلة وفُرص التطوّر

تقول الباحثة عليا أحمد[4]: إنّه «لا يُمكِن التعميم خلال الحديث عن تأثير النزوح واللّجوء في حياة المُراهقات والبالغات، فلكلِّ امرأة ظروفها التي أسهمت في اختلاف تجربتها عن الأخرى، وإنْ كنّا نلحظ إيجابيّةً ما في تكيُّف المُراهقات مع اللّجوء وإفادتهنّ منه أكثر من البالغات. لكنّ هؤلاء لم ينجينَ بالمطلق إذ ما زلنا نلحظ استمرار التزويج المبكر لبعض المُراهقات حتّى في الغرب». تعمل الباحثة أحمد منذ خمس سنوات مع المُراهقات والنساء اللّاجئات إلى ألمانيا، وتَضع تقارير دوريّة عن ظروفهنّ واحتياجاتهنّ لتُساعد في تصويب المشروعات التي تستهدفهنّ.

تنطلق الباحثة أحمد من واقع حقوق الطفل بعامّةٍ والمُراهقات بخاصّة في ألمانيا، حيث وصلت اللّاجئات من سوريا، «هنا يتربّى الأطفال والمُراهقون في البلد المُضيف على مفهوم الحقوق والخصوصيّة وحريّة الجسد وحريّة التعبير عن الذات وغيرها من المفاهيم والتقديمات التي تُسهِّل له تكوين شخصيّته ومن ثمّ استقراره النفسيّ وغيرها من الأمور». ومع أنّها لا تعتبر الوضع في ألمانيا «الجنّة» حتّى بالنسبة إلى المُراهقات الألمانيّات «ولكن لا يُمكننا إلّا القول إنّ هناك هوّة شاسعة بين الاثنتَيْن، المُراهِقة السوريّة وقرينتها الألمانيّة».

وتعود الباحثة أحمد للتأكيد أنّه لا يُمكِن إطلاق سمات جَمَعيّة على المُراهقات السوريّات حيث هناك خصوصيّة لكلِّ عائلة تبدأ من المستوى التعليميّ للأهل، إلى المادِّيّ، ومدى تديُّن العائلة أو تزمُّتها أو انفتاحها، ومع ذلك، ومهما اختلفت ظروف المُراهقات السوريّات، فإنّ الوعي الجمَعِيّ عند المُراهقات الألمانيّات مختلف كليًّا عن السوريّات الآتيات من الحرب ورحلة اللّجوء المُضنية المليئة بالمخاطر أحياناً». وعليه،

(4) أُجريت المُقابلة مع الباحثة عليا أحمد المُقيمة في ألمانيا عبر الهاتف في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

تجد أحمد أنّ المُراهقات اللّاجئات غالباً «نجدهنّ صامتات في البداية، يستكشفْنَ المكان، يتفرَّجْنَ على كلّ ما حولهنّ، مع شعورهنّ بالغربة، وبكلِّ جديد، وبالطبع يأخذْنَ وقتهنّ للتفاعُل مع المحيط». لكنّ هذا التفاعُل لا يأتي منمَّطاً «بعض اللّاجئات لم يكنّ محجّبات، على سبيل المثال، فتحجَّبْنَ في ألمانيا، فيما خلعتْ بعضهنّ حجابها»، وهنا يبرز تأثير ظروف كلٍّ منهنّ مع عائلتها على مسار الاندماج في المُجتمع المُضيف والتأقلُم معه.

تشهد الباحثة أحمد حتّى على تلاعُب العائلات في موضوع تزويج القاصرات وهو ممنوع قانونيّاً في ألمانيا «يعني مِشْ بس بلبنان أو بالأردن بيزوجوهن». وكون الدولة المُضيفة تَمنح مبلغاً من المال لكلّ فردٍ لاجئ، فإنّ بعض العائلات تطلب من المَراكز المُهتمّة باللّاجئين تحويل المبلغ المخصَّص لابنتهنَّ إلى حساب زوجها، بعدما يدَّعون أنَّه صديقها، مع تبرير ذلك بالقول «بدّها تعيش مع صديقها»، بينما هي تكون قد تزوّجته دينيّاً (عقد قران دينيّ)، ويتمّ تأجيل الزواج المدنيّ ريثما تبلغ 18 سنة. ويستغرب بعض الموظَّفين كيف لمُراهقة صغيرة ومحجَّبة وملتزمة دينيًّا مع عائلتها أن يكون مسموحاً لها العيش مع صديقها من دون زواج. في الواقع، تطلب العائلة نقل المساعدة الماليّة لحساب الزوج تنفيذاً لاشتراط الأخير بعد أن يكون قد دفع المهر لعائلة عروسه. وتوثِّق الباحثة أحمد تغيّراً في استخدامات المُراهقات أو البالغات من النساء، حيث إنّ المهر تحوّل في بعض الحالات من دفع المال «كاش» إلى الطلب من العريس أن يدفع للمهرِّب ويسعى لكي يأتِيَ بشقيقها أو بوالدها. ومع ذلك فإنّ الوضع أفضل ممّا كان عليه في بلد المنشأ مع متابعة أوضاع الفتيات التي تقوم بها المَدارِس فتخشى بعض العائلات المُساءَلة القانونيّة، ولكنّها متابعة لا تنجح دائماً في لجْم تلاعُب بعض اللّاجئين.

ويقوم تخوُّفُ العائلةِ من تأثُّر اللّاجئة المُراهِقة بعاداتِ المُجتمع المُضيف وسلوكيّاته بدورٍ كبيرٍ في تقييد حريّة المُراهقات وحركتهنَّ، وهو ما يحدّ من إفادتهنّ من فُرَص تطوير الذات والتعلُّم وتبلْور شخصيّاتهنّ. وتجد الباحثة أحمد أنّ بعض الأمّهات يتشدَّدنَ مع بناتهنّ خوفاً من تحميلهنّ (تحميل الأمّهات) مسؤوليّة أيّ تصرُّف قد يجده المُجتمع اللّاجئ مُنافيًا للعادات والتقاليد، لأنّ اللّومَ يقعُ على الأمّ في تربية الفتيات، وفق تفكير الآباء والأشقّاء والعمومة. وتُعبِّر المُراهقات مثلاً، في جلسات التفريغ النفسيّ،

عن تفضيلهنّ التسوُّق مع آبائهنّ، وليس مع الأمّهات، لِكَون الأب لا يُدقِّق في تفاصيل اللِّباس، ويكتفي بأن يكون مُحتشماً، بينما تُبالِغ الأمّهات في مُراقَبةِ كلّ دقائق لباس المُراهقات خوفاً من لَومهنّ من قِبَلِ الأب والأشقّاء الذكور. أي أنّ الأمّ تُصبحُ ملكةً أكثر من الملك، حيث يضع الأب على عاتقها ومسؤوليّتها تربية الابنة ومُراقَبة لباسها وعند أيّ تغييرٍ في لباس المُراهِقة يُقال لها دائماً «ليش هيك ملبّسِة بنتِك؟»، في منحىً لاستمرار لَوم المرأة وتحميلها المسؤوليّة. والأمر نفسه ينسحب على الأماكن التي تقصدها المُراهِقة وعلى نوعيّة الرِّفقة والجوّ المسموح لها التحرُّك في إطاره.

في المقابل، تُؤكِّد أحمد أنّ بعض المُراهقات يتمكَّنَّ من رفض التزويج المبكر عندما لا يكون هناك عنف في العائلة، كما يسعَيْنَ لاستكمال تعليمهنّ، حتّى أنّ بعضًا منهنّ تمكَّنّ من إقناع أسرهنّ بالعيش في مدينةٍ قريبة بعدما تمّ قبولهنّ للدراسة الجامعيّة حين لم يحصلنَ على قبولٍ في جامعة المدينة التي تسكن فيها عائلاتهنّ.

ومع ذلك تتفاءل أحمد بالنسبة إلى المُراهقات أكثر من البالغات على الرّغم من كلّ ما يُشاع عن أنّ اللّجوء بعامَّةٍ، وإلى الغرب بخاصّة، قد غيَّرَ في مَركز السلطة داخل العائلة السوريّة لمصلحة المرأة وفَتَحَ أمامها آفاقًا بسبب تفلُّتها من القيود والتقاليد التي كانت تأسر بعضهنّ في سوريا حيث يُشاع، على سبيل المثال، أنّ السوريّات صرْنَ مُتحرِّرات، وقد يُتَّهمُ بعضهنّ بالتفلُّت من القيود، وبارتفاع نسبة اللّواتي يَطلبْنَ الطَّلاق ويَحصلْنَ عليه، سواء أكان ذلك من البالغات أم من المُراهقات، هذا فضلاً عن زيادة نسبة الوعي عندهنّ تجاه العنف الأسريّ على أنواعه من اللّفظيّ إلى المعنويّ والجسديّ والجنسيّ. ولكنّ أحمد، التي تعمل مع أكثر من 200 عائلة لاجئة، تشهد أنّ هناك ما يزيد على 30 امرأة من محيطها يتعرَّضْنَ للعنف الشديد، ولكنهنّ غير قادرات على اتِّخاذ القرار بالطلاق، مشيرةً إلى أنّ اللّواتي حصلنَ على الطلاق من بين هذه العائلات انتفاضًا على العنف بأشكاله كافّة، هنّ أقلّ بكثير ممَّن يتحمَّلْنَ العنفَ ولا يُطالبْنَ بالطلاق، ومن بين هؤلاء مُراهقات متزوِّجات. وتلمس أحمد أنّ بعض النساء ممّن مضى على لجوئهنّ من ستٍّ إلى ثماني سنوات يتمتَّعنَ ببعض القوّة، ولكنْ هناك كثيرات من بينهنّ ما زلْنَ يَخضعْنَ للتقاليد ولتبعيّة المرأة للرَّجل والخضوع له. ويتمظهر هذا الخضوع، من مُراهِقات أو بالغات، على سبيل المثال لا الحصر، في جهلهنّ لقيمة المبالغ الماليّة التي ترسلها لهنّ الدولة

المُضيفة، وفي عدم امتلاكهنّ أيّ سلطة على هذا المبلغ الذي هو خاصّتهنّ، ولا يمتَّعنَ بحساباتٍ مُنفصلة عن آبائهنّ أو أزواجهنّ. في المقابل نجد أخريات بدأْنَ يسألْنَ عن المال وعن حقّهنّ بمساعدة عائلاتهنّ في بلادهنَّ كما يفعل الأزواج، وهو ما يُبيِّن حصول بعض التغيير وإنْ كان ليس عامّاً أو جمعيّاً. وتُركِّز أحمد على مدى تغيُّر اللّاجئة البالغة لترصد تأثيرها في اللّاجئة المُراهِقة، إذ كيف لمَن لا تستطيع تغيير حياتها أو حماية نفسها أنْ تدعم ابنتها المُراهِقة وتحميها سواء من الأب أم الأخ؟ ويقوم ما يُشاع عن تحرُّر المرأة السوريّة بدورٍ سلبيٍّ أحيانًا يتمثّل في زيادة الرقابة اللّصيقة على المُراهقات خوفاً من تأثُّرهنّ بسلوكيّات المُراهقات الأجنبيّات، وهو ما حصل مع ماجدة (15 عاماً) التي يُحوِّل شقيقُها حياتَها إلى ما يُشبه الجحيم.

«ما لازم تفلتي»

تعيش ماجدة[5] مع والدتها وشقيقتها رلى وشقيقها في ألمانيا بعدما لجأوا إليها من مخيَّم اليرموك في سوريا «نحن كفلسطينيّين عاداتنا متل عادات العائلات السوريّة وتقاليدنا أيضاً وسلوكيّاتنا»، تقول وكأنّها تُؤكِّد تمسُّكها بما يتوقَّعه منها المُجتمع اللّاجئ بعامَّةٍ، وعائلتها بخاصّة «يعني أنا بعرف أنّي ما فيّي كون متل الألمانيّات، بس أخي بيضلّ يضغطني ويتدخَّل في كلِّ شيء». لم تكُن ماجدة محجَّبة عندما تركت سوريا «أبي ما جبرني بالحجاب وترك لي الحريّة». بعد وفاة والدها في الحرب، لجأت العائلة إلى ألمانيا ولم تكُن قد أتمّت الرابعة عشرة من العمر، فانتقلت السلطة إلى الأخ على الرّغم من وجود الأمّ، وهي خمسينيّة وحاضرة في إدارة شؤون الأسرة. وهنا بدأ شقيقها بالتدخُّل في تفاصيل حياتها كافّة تحت ذريعة «ما بدّي تفكّري حالِك ألمانيّة وتفلتي». تجنُّبًا للمُشكلات، أذعنت لرغبته بارتداء الحجاب، ولكنّه لم يكتفِ بذلك، وما زالت تعاني من ضغوطه. يُراقِب هاتفها وكلّ رسالة قد ترِدها بعدما مَنَعَها من وضْعِ كلمة سرّ لفتْح الهاتف «ما عندي أيّ خصوصيّة». يعترض على ارتدائها أيّ قميص فوق البنطال لا يصل إلى ركبتها، يمنعها من مُصادقة أيّ فتاة حتّى لو كانت لاجئة في حال كانت سلوكيّاتها غير تقليديّة أو بدا عليها تمتّعها بهامشٍ ولو ضئيلٍ من الحريّة، ويظلّ يُراقِبها طوال الوقت

(5) تمّت مُقابَلة ماجدة في لايبزيغ في ألمانيا صيف العام 2018.

مع أنّها لا تتزيَّن كما بقيّة الفتيات «محرِّمني حّط حتّى قلم كحل بعيني». كما أنّه حاولَ تزويجها من صديقه لكي لا تُفكِّر في دخول الجامعة. وعندما لجأت إلى عمِّها تطلب تدخُّله لكي يُخفِّفَ من الضغط عليها قال لها الأخير «أخوك أدرى بمصلحتك»، على الرّغم من أنّها أبلغته وشقيقها أنّ الضغط والمُراقَبة اللّصيقة ليسا ما يمنعها من ارتكاب ما يعتبرانه «غلطًا»: «فأنا أحمي نفسي وأعرف حدودي»، في ما يدلّ على نظرة المُراهِقة اللّاجئة نفسها لما تُسمّيه حدود حريّتها وخصوصيّتها.

أمّا أمّها فقد اكتفت بالقول «لو بعدْنا بسوريا كنت بحبّ تخلِّص جامعة وتحبّ وتتزوّج، بس هون نحن خايفين تتأثَّر بجوّ المصاحبة والسهر، ثقافة ألمانيا بتختلف عن ثقافة بلدنا ودينا، الألماني بياخدها فترة وبيكِبّها. ما عنّا تعصُّب فكريّ بس هون الظرف غير». وعندما نسألها عن مسؤوليّتها في حماية ابنتها من تسلُّط شقيقها، ترى أنّ كلّ تصرُّفاته هي حبًّا بأخته وحرصاً عليها، وأنّه «حنون» ويخاف عليها كثيراً. ومن باب ما تُسمّيه الأم «حنِّيته» تمكّنت من إقناعه بعدم إرغامها على الزواج، وخصوصًا أنّ ماجدة «شاطرة كتير وفيها تِعمل أحلى اختصاص».

تقول ماجدة إنّها تقود معارك على جبهات كثيرة: أوّلها في المنزل لانتزاعِ هامشٍ مقبول من الحريّة، وثانيها مع الدولة المُضيفة لِكونها فلسطينيّة سوريّة «لعنة احتلال فلسطين تلحق بي حتّى إلى ألمانيا». تحمل ماجدة جواز سفر كُتب عليه «بلا وطن» وهذا ما عرّضها لعنصريّةٍ إضافيّة من قِبَلِ موظَّفي مَراكِز اللّجوء والدوائر المَعنيّة به. في ألمانيا يمنحون السوريّين بطاقة خضراء قبل الإقامة تُخوِّلهم دخول المَدارِس ومَعاهِد اللّغة «وأنا كانوا يرفضوني». ومع رفْضها لأشهُرٍ من مَدارِس ومَعاهِد مُختلفة لأنّها «بلا وطن»، ناضلت ماجدة كثيراً لتَجِدَ مَعهداً لا يسأل عن الهويّة لقبولها لتدرس فيه «كان حظّي كتير حلو ودلّني رفيقي (وهو فلسطينيّ مثلها) ع معهد ما بيطلب إقامات وسجَّلْت ودرسْت».

ذكريات أو أهوال لا تُنسى

وعلى الرّغم من تمكُّن الكثير من المُراهقات من التمتُّع بسلّة حقوقيّة مقبولة لاستكمال حياتهنّ وتطوُّر شخصياتهنّ والتعلُّم، إلّا أنّنا نجدهنَّ أسيرات ذكريات الحرب وطريق اللّجوء. صحيح أنّ ياسمين لا تنسى قصّةَ سَحَر التي اغتُصِبَت خلال محاولتها

الوصول تهريباً إلى ألمانيا، ولكنّ ذاكرتها تعجّ أيضاً بالمخاطر والويلات التي عبرت بها منذ لحظة تَرْكِ والدتها وأشقّائها وشقيقاتها في سوريا وانتقالها إلى القامشلي ومنها إلى تركيا فالبحر وصولًا إلى اليونان ومنها إلى ألمانيا. تصرّ المُراهِقة التي كانت في الـ 16 من عمرها عندما قرَّرت أمُّها فجأة أن تسبقها وبقيّة العائلة للعيش مع والدها الذي كان يُنجز أوراقَ لمِّ شَمْل زوجته وأبنائه «خافت عليّي من الحرب والمسلَّحين والأوضاع الفالتة». دفع والدها 3 آلاف يورو لرحلة التهريب، وعليه أرسل لها المهرِّب دعوةً مع كفالةٍ لزيارة عائلته في القامشلي التي وصلتها بالطائرة من ضمن تكلفة التهريب «وْصِلْت ع القامشلي مع رفيقتي وعمرها 16 سنة أيضاً». أسكنهما المهرِّب وعمره 35 عاماً في بيته «بس طلع إبن حرام، كان فورًا بيقطّع الهاربين الحدود من القامشلي بس نحنا، مع تلات بنات غيرنا، ما فوَّتنا فورًا ع تركيا». بقيت الفتيات 15 يوماً في الكونتينر الذي استحدثه المهرِّب بالقرب من بيته لإسكانهنّ «ووصلنا لمرحلة أنّه مُمكن نرجع ع سوريا، كنّا بنات وبدُّه يستغِلنا، يُمكِن كان عم يفكِّر يتاجر فينا أو يشغِّلنا بالدَّعارة». وعليه، اتّفقتِ الفتياتُ الخمس على الحراسة «كلّ يوم واحدِة مِنّا تبقى تحرس وما تنام أبداً خوفًا من أن يعمل لنا شي». في اللّيلة الـ 14 اغتصبَ سَحَر التي كانت تلحق بوالدها في ألمانيا أيضاً، وبعد تهديده من عم ياسمين قَطَعَ بها وبرفيقتها الحدود التركيّة «يعني كان قادر يفوِّتنا ع تركيا بس ما بدُّه». عَبَرت ياسمين وصديقتها الحدود عبر نفق حَفَرَهُ المهرِّبون لا يراه العسكر التركي. بعد الحدود بأمتار سلَّمهما المهرِّب إلى قريبة صديقتها التي اصطحبتهما إلى بيتها لغاية الصباح لكي تلتحقا بلاجئين آخرين وتركبا زورقًا مطّاطيّاً يعبر بهنَّ البحر إلى اليونان. على الشاطئ صعدت ياسمين في زورق صغير «كذَّب علينا كمان، ما في زورق مطّاطي كبير، لقينا مركب صغير وعليه 57 راكبًا قاعدين فوق بعض».

بعد الابتعاد عن الشاطئ التركيّ بقليل بدأ سائق الزورق يدور حول نفسه «يعني ما بيعرف يسوق مركب»، ثمّ اندلعت عاصفة ونَفَدَ الوقود وصار المركب يغرق». اتّصلت ياسمين بوالدها لكي يُخابِر خفر السواحل اليونانيّ بينما غرق بعض مَن كانوا على متن القارب إثر سقطوهم في البحر «وأنا أُغمِي عليّي في أرض المركب وما عدت عرفت شو صار». ما زالت تسمع أصوات الغارقين يستغيثون ولا أحد يجرؤ أو يقدر على مساعدتهم.

لا تعرف ياسمين كم مرّ من الوقت قبل أن يصل اليونانيّون ويسحبوا مركبهم إلى جزيرةٍ تبعد ساعة ونصف الساعة عن مكان تواجدهم في البحر «حسَّيت إنّه رجعت لي روحي، فكَّرت إنُّه ما بدّي عيش كرمالي بس كرمال ماما وبكيت كتير لأنّه بالمركب وبنصّ البحر ما حسَّيت إلّا بالموت».

في اليونان منحوا كلَّ لاجئ/ة خريطة تُسهِّل له/ها العبور من مكان إلى أخر «الصليب الأحمر صار يساعدنا لنعبرَ على الحدود ومن مكان لمكان وسهّلوا هروبنا ع صربيا ومنها للنمسا ثمّ ألمانيا». وفي كلّ مرحلة كانت ياسمين ترفض أن تبصم على دخولها كما في صربيا وكذلك النمسا «كان أبي قايل لي إذا ببصم ما بعود بقدر فوت ع ألمانيا». في النمسا احتجزوها مع صديقتها في مخيَّم مقفل ولكنّها تعرَّفت إلى شاب سوري من حلب «طلع ابن حلال، استعمل الكارت تبعه لفتح باب المخيَّم وأخرجنا ثمّ أوصلنا إلى محطّة القطار حتّى وصلنا إلى لايبزيغ في ألمانيا». بكت ياسمين أكثر من مرّة وهي تروي قصّة وصولها إلى ألمانيا «مثلًا كان ممكن كون أنا مكان سَحَر اللّي اغتصبت». لكنّها وكما وضعت ما حدث مع رفيقة درب التهريب وراء ظهرها ومعها ما حصل معها في البحر حتّى وصلت إلى ألمانيا، تقفز عن الماضي لتبدأ بسرد واقعها وما تُخطِّط له مستقبلًا «كان حظّي كتير حلو رغم أنّي تعرّضت للعنصريّة من بعض موظّفي مراكز اللّجوء». تمكَّنَتْ بعد أيّام من دخولها ألمانيا من التسجيل في معهدٍ للّغة «وكان المعهد للأبحاث كمان وعم يعمل دراسة عن التغيُّر الذي يطرأ على حياة اللّاجئين فما أخد منّي مصاري وعملي دورات مكثَّفة مكَّنتني من النجاح بمستوى B1 الذي يُخوِّلني مراسلة الجامعات». في هذا الوقت تعرَّفت على سيّدة سوريّة تعمل مع جمعيّة تهتمّ بالنساء اللّاجئات «عمِلْت معهن أكثَر من تدريب وطبّقت اللّي تعلمْته باللّغة عمليّاً، وإجاني قبول من جامعة خارج لايبزيغ». هنا رفضت عائلة ياسمين أن تعيش بعيداً عنها «قال في كتير نازيين بمدينة الجامعة فخافوا عليّي ومنعوني روح».

اليوم تتحضَّر ياسمين لدخول جامعة أخرى في لايبزيغ «اشترطوا إعمل سنة تحضيريّة وإذا نجحت فيها بدْخُل اختصاص»، تقول ذلك وهي تشرح كيف أقنعت عائلتها بعدم تزويجها «قلت لأبي بدّي إتعلَّم وكون مستقِلّة حتّى لمَّن أتزوّج كون قويّة وهو اقتنع معي». تُؤكِّد أنّها لا تُفكِّر اليوم سوى بإنهاء دراستها الجامعيّة بينما تتحضَّر شقيقتها

الصغرى التي صارت اليوم في الـ 16 من عمرها للزواج «أختي ما بتحب تتعلَّم، انخطبت لدكتور وبدها تتزوّج وأهلي مبسوطين فيها». منحتها الدولة الألمانيّة قرضاً جامعيًّا «يعني ما بعوز مصريّات أهلي وبتعلَّم وبعدين بردّه». تحكي عن إيجابيّات اللّجوء من دون أن تنسى السلبيّات «في موظّفين عنصريّين، مرّة حاولت واحدة تخلّيني أُوقِّع على ورقة بتقول إنّه لازم اشتغل وبتنازل عن حقّي بالتعليم، وأنا أصرَّيت إقراها وما قبلت وقِّعها». ترى ياسمين أنّ انفتاح أهلها أكثر من عائلات سورية أخرى ساعدها في التأقلم وقلَّل من مشكلاتها ولكن دائماً تحت سقف التقاليد والعادات «أنا بعرف حدودي وما بزعِّلهم، وأنا مقتنعة أنه نحن غير الألمان».

خسارة الوطن لا تُعوَّض

من الحديث مع اللّاجئات يُمكِن تلمُّس تأثير الحرب في بعضهنّ بقدر عيشهنّ لها. فاللّواتي تمكَّنَّ بسرعة من مُغادَرة بلادهنّ نَجَوْنَ بمعنى من المعاني، فيما نجد أخريات مثقلات بذكريات أهوال ما حصل وبالموت وأصوات القصف وتبعات التفلُّت الأمنيّ وسلوكيّات المُتقاتلين. كما نجد تأثير مدى انخراط عائلة المُراهِقة في الحرب والسياسة فيها وفي تفكيرها والمسافة التي تفصلها عن كلّ ما يحصل، وهي حال سلمى اللّاجئة العراقيّة في لبنان.

تجلس سلمى[6] الأربعينيّة اليوم لتصف نفسها بِـ«الطفلة التي تربّت على أصوات الصواريخ». نسألها «والرّصاص كمان؟»، تبتسم بسخرية لتقول «الرصاص كان عادي، لمَّن بتعيشي ع وقع الصواريخ بيصير الرصاص لعب اولاد بالحارة». بعد أربعين عاماً على ولادتها ترى أنّ أهمّ أثر للجوئها هو خسارة وطنها العراق «أنا مكسورة، ليس لأنّني عشت طفولتي ومُراهقتي في الحروب، بل لأنّني بلا وطن، خسرت وطني، وهذا أقسى ما يُمكِن أن يحدث لإنسان». ذاكرتها تعجّ بالأحداث والأهوال هي التي وُلدت مع اندلاع الحرب العراقيّة الإيرانيّة. كانت في السابعة من عمرها عندما سقط صاروخ على مدرسة تبعد مئة متر عن مدرستها «رفقاتي كلّهم ركضوا بالساحة وأنا تجمّدت بمكاني وانربط لساني وبقيت جامدة حتّى سمعت صوت أبي من ورا السياج عم يناديني». لحظتها

(6) تمّت مُقابَلة سلمى في تشرين الثاني/نوفمبر 2021 في لبنان.

انهارت وبدأت بالصراخ فحملها وعاد بها إلى البيت حيث لم تتوقّف عن البكاء. قَتَلَ الصاروخ كلّ أطفال المدرسة وأطلقت عليها الدولة اسم «بلاط الشهداء».

لم تكُن المدينة التي يعيش فيها عمّ سلمى تتعرّض لقصفٍ شديد كما بغداد، وعليه أرسلها والدها لتكمل عامها الدراسيّ في منزله «كنت ضلّ خايفة وإجريّي يرجفوا كلّما سمعت صوت صاروخ، أرجف لدرجة إنّو أبي يقعد يثبّت لي إجريّي حتّى إهدا». تصف سلمى انتقالها للعيش في منزل عمّها بِـ«التهجير الأوّل». أثّر بها التهجير كثيراً على الرّغم من أنّه وثّق علاقتها بعمّها كثيراً «كنت معلَّقة بأبي كتير، كنت لمَّن يروح ع الحرب احتفظ بقطعة من تيابه وأعبطها ونام حتّى يرجع».

بعدها فُقد شقيقها في إحدى المعارك فعادت إلى أسرتها «كانت أمّي كلّ خميس تطلِّع تيابه تغسلهم وتنشرهم وتقعد تبكي حدِّهم». بعد ثلاث سنوات تأكّد استشهاده في الحرب، فقرَّر والدها أن يرسل ثيابه لإحدى الجمعيّات لكي يُخفِّف عن والدتها «سرقت من عطره وحطَّيت منه ع محرمة وخبّيتها بشنطتي وضلّيت شمّها إلى أنْ تهجَّرت من العراق نهائيّاً»، لكنّها حتّى اليوم تحفظ رائحتها «بس يكون حدا معطَّر بمتلها بعرفها فورًا بس بستحي إسأل».

انتهت الحرب العراقيّة الإيرانيّة ليختفِيَ والدُها خلال دخول العراق إلى الكويت «انفقد أبي وبلَّش الحصار، وضلَّينا شهور ناكل بطاطا معجونة مع نخالة ومشويّة ع الصوبيا بلا أيّ شي تاني». وعلى الرّغم من ذلك علَّمتها الحرب الكثير عن العلاقات الإنسانيّة «تعلَّمنا كيف نعيش بالظروف الصعبة، كيف نلمّ الشوك من الأرض الخرابة لنطبخ عليها، كيف نُساعد بعضنا نحن وسكّان الحارة، وكيف البيوت الواطية تستقبل سكّان الطوابق العليا، وكان بيتنا أرضي ينزلوا الجيران يناموا عِنّا، الحرب كتير عملت إلْفِة بين الناس وقرَّبتهم من بعض». وحده الاحتلال الأميركيّ فَرقَ العراقيّين «عِمِلْنا سُنَّة وشيعة وعمل فجوة بيناتنا».

حرب الخليج غيَّرتها «بالحرب بيموت القلب وهيك صار معي فعليّاً، بتنسي تخافي والناس عم تموت، بيصير الخوف رفاهيّة». مع التدريبات العسكريّة التي خضعت لها وكانت في 15 من عمرها، بدأت تتحوّل إلى فتاةٍ شجاعة «الزي العسكري لوحده بيعطي

قوّة، وفكرة إنّك عم تستعدّي لتقدري تدافعي عن بلدك بتخلّيكي تصيري قويّة كمان، ولمَّن تقوصي ع الهدف وتصيبيه، بتحسّي إنّك قادرة تحمي نفسك ووطنك».

حتّى مواظبتها على الذهاب إلى المدرسة خلال حرب الخليج كانت بالنسبة إليها «تحدّيًا»، «كتير تلامذة وطلّاب ما عادوا داوموا لأنّهم استهدفوا المَدارِس وصار النجاح جهاد». في عمر الـ 15 عاماً عرفت تجربة تعتبرها كانت مفصلًا في حياتها «لمَّن انقسم البلد طائفيًّا وصار في ميليشيات، واحتلّوه الأميركان وفقدنا كلّ الأمان، أعطاني أبي مسدسًا وقال لي ممنوع تخلّي حدا يفوت ع البيت». كانت تسهر والرصاصة في بيت نار مسدسها «أقعد راقب الباب وأبي غايب، وكنت مستعدّة أطخّ أيّ ميليشياوي أو محتلّ مُمكن يحاول يفوت ع بيتنا». لكنّ رؤيتها للجنود الأميركيّين حين دخلوا بغداد «كبَّرتني 50 سنة». وبدأت تتوالى خيباتها «كتير ناس انقلبوا وتغيَّروا وتعاملوا وخانوا، وأنا ما إستوعب وجود الأميركان بشوارعنا». الشوارع عَينها التي رأت فيها الموت يوميًّا «كنت أشهد ع دبّابة عم تطلع ع سيّارة وتدهس كلّ من فيها، عَ تفجير يطلع بعيد عنّي بمئات الأمتار فقط ويقتل العشرات»، وهي نسِيَت أنّها مُراهقة «نسيت إنّي صبيّة، أنّي امرأة، لم أعِش من كلّ هذه المراحل أيّ شيء غير الحروب والتهجير»، إلى أنْ أتى اليوم الذي تركت فيه العراق نهائيّاً.

كان ذلك في مساء قَصَدَت فيه إحدى الميليشيات المُتقاتلة منزلَ عائلتها بقصد اعتقال والدها «كانوا يعتقلوا الرجال بحجّة التحقيق معهم وبعدين نلاقيهم جثثًا». تمكّن والدُها من الهرب قبل أن يتعرَّف إليه المسلَّحون «فكّروه واحد تاني وسمعهم جارنا عم يقولوا إسمه فبلّغه وهرب». دخل المسلَّحون المنزلَ وكانت بداخله وبدأوا يُحقِّقون معها ليعرفوا مكان والدها «راح لعند عمّي خارج بغداد»، قالت لهم، فوضعوها أمام ثلاثة خيارات: إمّا أن ترشدهم إلى مكانه أو اغتصابها أو إفراغ بنادقهم في رأسها. تقول إنّها تلَتْ صلاتَها في قلبها واستعدَّت للموت حين رنّ هاتف المسلَّح الذي يُمسِك بها وجاءه أمرٌ بإخلاء المنطقة فورًا نظرًا لحصول تطوُّرات لم تعرفْها. بعد رحيل المسلَّحين جاءها مرسال من والدها بوجوب مغادرة بيتهم فوراً. رفضت الرحيل ولكنّه أرسل لها يقول «ما تكسريني»، وكان يقصد أنّه يخاف من اغتصابها، واعدًا إيّاها بالعودة عند أقرب فرصة. «ودَّعت حيطان

البيت حيطًا حيطًا قبل ما فِلْ» تقول والدُّموع تكرّ من عينَيها. لم تكُن رحلة وصولها إلى لبنان سهلة «كان يُمكِن أن نُقتل في أيِّ لحظة».

هنا في بيروت جاءت غريبة وبقيت غريبة لغاية اليوم. يتعامل معظم مَن حاولتْ أن تشتغل معهم معها على أنّها ضعيفة وهشّة وامرأة «وذقت الكثير من الخيبات من الناس، وبقيت غريبة، غريبة، غريبة». غربة تضعها في مواقف جدّ صعبة «في كتار عرضوا عليّي يشغّلوني بالدعارة، كتار عرضوا يحموني ويساعدوني مقابل علاقة، ما عدت إنسان بنظرهم، فقط أنا كائن قابل للاستغلال». بعدما ساء وضع العراق لدرجة أبلغها فيها والدها بعدم قدرتهم على العودة نهائيّاً، رمت عقدها الوحيد الذي حملته معها في بحر بيروت. تقول إنّ طفولتها ليست مهمّة بالنسبة إليها، ولا مُراهقتها كذلك، وحتّى شبابها اليوم «أنا أكبر غريبة، بلا وطن أستطيع العودة إليه وهذا يقتلني».

شبح الحرب

وكما تختلف قصص اللّاجئات من فلسطينيّات وسوريّات وعراقيّات، نجد اختلافاً في تأثير الحرب اللّبنانيّة في المُراهقات حينها، ولاسيّما في ظلّ شبحها اليوم في خضمّ الأزمة التي تعيشها البلاد، ومن هؤلاء ديما[7]. حين سقط تلّ الزعتر لم تكُن ديما تعرف منطقة بأحيائها كافّة غير النبعة في شرقي بيروت «كان عمّي عنده مبنى كامل وكنّا عايشين كلّ عيلة، من عمّاتي وعمومتي ونحن، بشقّة». وكانت هي في عامها العاشر.

اليوم وهي تُقفِل خمسينها تتذكَّر ديما نفسها وعائلتها محشورة في سيّارة تاكسي مع أكياس الثياب الضروريّة وكُتب المدرسة، فيما أزيز الرصاص يُطوِّقها (يُطوِّق السيّارة) وهي تخرق عباب منطقة المتحف في بيروت «قالت لنا أمّي وطّوا روسكم ع أرض السيّارة». كانت الأكياس تحجب عنهم القنّاصين من دون أصوات طلقاتهم. وعندما وصلوا إلى منطقة الحمرا، حيث يسكن جدّاها لأمّها، جعل أباها يتفقّدهم الواحد تلو الآخر «بدُّه يشوف إذا حدا انصاب». «شعرت أنّي اقتُلِعت من بيئتي، من المنزل الذي تربَّيت فيه، ومن المبنى الذي كان بمثابة حارتنا، نحن الأقارب، وفقدتُ للمرّة الأولى أيّ إحساس بالأمان»، وفق ما تقول. بكت كثيرًا بعدما وضَّبت أمها بعض الأغراض وأبلغتهم أنّهم

(7) تمَّت مُقابَلة ديما في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

سيعودون إلى منزلهم في إحدى القرى الجنوبيّة. لكثرة صراخها «ما كنت معلّقة بالضيعة وببيتنا فيها، كنت بدّي ضل حَدْ بيتي ببيروت»، توسَّطت جدّتها مع أمِّها لتتركها عندهم، وهكذا حصل. على الرّغم مِنَ التهجير، شعرت ديما للمرّة الأولى بغياب الرقابة اللَّصيقة لأمِّها «حسَّيْت حالي حرّة، يعني عندي هامش أوسع ممّا كان مع أهلي»، وقد أحبَّتْ هذا التغيير. تغييرٌ لم يدمْ كثيراً إذ عاد والدُها بعد انتهاء العام الدِّراسيّ واصطحبها إلى الجنوب.

وجاء العدوان الإسرائيليّ في 1978 ليُهجِّر عائلتها من الجنوب «هربنا تحت القصف ورجعنا ع بيروت» قالت أمُّها إنّها لن تعودَ بهم إلى الجنوب، وهكذا كان. اِستأجرت العائلة منزلًا عبارة عن غرفة كبيرة مقسومة إلى غرفتيْن صغيرتَيْن تحت درج أحد أبنية بيروت «كان بيتنا بالنبعة كتير كبير وحلو» عكس هذا المنزل الصغير المُعتِم الذي تعشعِش فيه الرطوبة. والأهمّ أنّ والدها صار بلا عمل «خسر أبي شغلُه بالنبعة وكان جيِّدًا، ومعه تغيَّرت حياتنا وصِرنا عايشين بالقِلِّة». عندما اتَّسعت دائرة التهجير، تتذكَّر ديما أنّ أمَّها كانت تخرج يوميًّا مع صرَّةِ ملابس وفرشة اسفنج لتبحث عن بيت فارغ تضع فيه ما تحمله لتُثبتَ سيطرتها عليه، إلى أن تمكَّنتْ من العثور على شقَّة مرتَّبة في «راس النَّبع». تُعشعش في ذاكرتها حروب الشوارع، طوابير الخبز وكلّ شيء، لا كهرباء ولا ماء ولا غاز، وكانت أمُّها تبيع ذهبَها قطعة قطعة لتدخلهم كلّ عام حتّى إلى المدرسة الرسميّة، فيما باع والدُها كلّ ما يملك في الجنوب حتّى يُعيلهم. كانت مدرستها في الثانوي تبعد نحو 5 كيلومترات عن منزلها، ومع ذلك كانت تقصدها سيراً على الأقدام. غيَّرتها الحرب ولكنّها أنضجتها «تطوَّعت مع جمعيّات أهليّة وشكَّلت مع آخرين فِرَقاً لتنظيم أنشطة للأطفال وأعمال مسرحيّة، ودورات محو أُمِّيَّة للنساء، وكانت هذه الأنشطة مساحتها التي تخرج فيها من البيت «يأمّنوا عليّ لأنّي مع الجمعيّة القريبة ع البيت».

مع تهجُّرها من الجنوب، وانخراط والدها في مقاومة إسرائيل، وَعت ديما على القضيّة الفلسطينيّة «رحت اتدرَّبت ع السِّلاح من دون ما خبِّر أهلي، كانوا يمنعوني وأنا روح من وراهم». تعلَّمت على فكِّ السلاح وتركيبه وتنظيفه وعلى إطلاق النار، وبدأتْ تُفكِّر في تنفيذ عمليّة استشهاديّة. في هذه الفترة تشكَّل وعيُها السياسي «ما كرهت الحرب بهيدي الفترة، كنت حِسْ إنّها وسيلة للتغيير»، وكانت تعتبر ما تقوم به نضالًا «حتّى إنّي

صرت إخجل إذا اشترت لي أمّي تياب جديدة»، توسّخ ثيابها لكي تخرج بها في الطريق لكي «لا تبدو جديدة». تركت الحرب فيها تغييراً جذّيّاً وإيجابيّاً كما تصفه «لمَّنْ كنت ببيتنا بالنبعة ما كنت إقرا غير بكتب المدرسة»، في الحرب نضجت شخصيّتها ومفاهيمها «كنت مراهقة واعية» وهذا ما أحبَّته كثيراً «حتّى أخوتي يروحوا ع التّظاهرات ويرجعوا مفجَّمين ومجروحين» وهو ما كان يُعجبها كثيراً. وانخراطاً منها في ما يحدث من حولها، خضعت لدورة إسعافات أوليّة وصارت تخرج إلى الميدان مع كلِّ تفجير «كنت خاف من السيّارات المفخَّخة، ووَحْدَه العمل في الإسعاف أنقذني»، شعرَتْ أنّها فاعلة وتُسعِف وتُسهِم في إنقاذ حياة الناس.

خلال الاجتياح الإسرائيليّ في العام 1982 قرَّر والدها إعادة عائلته إلى الجنوب «هربتُ من السيّارة وتخبّيت وبقيت بالعاصمة وراح كلّ الخوف من جوّاتي». كثّفت من نشاطها مع الجمعيّات بين الناس، ولكنَّ مشهدَ الجنود الإسرائيليّين على أرصفة بيروت لا يُغادِر ذاكرتها. وعندما انطلقت جبهة المقاومة اللّبنانيّة وبدأتْ بتنفيذ عمليّات مقاومة بالإسرائيليين، قصدتْ أحدَ الأحزاب اليساريّة وطلبت إرسالها لتنفيذ عمليّة بهم، ولكنَّ قيادة الحزب رفضت طلبَها «لمَّن شفت الإسرائيليّين ع الحواجز وأحيانًا معهم لبنانيّين اختنقت». ومع ذلك لم تشارك في معارك أو أعمال عسكريّة «ضَلْ عملي إنساني طوال الحرب».

عندما اندلعت اشتباكاتُ عين الرّمّانة ـ الشيّاح كانت ديما في منزلها في فرن الشبّاك على حدود عين الرمّانة. أمضتْ خمسَ ساعات مُحاصَرة بالرصاص والاشتباكات. خمس ساعات عادت فيها صور الحرب وكلّ ما عاشته في أيّام مُراهقتِها «قعدت إبكي، كِنْت مرعوبة مِش قادرة إحمِل صوت الرصاص، واكتشفت إنّو الحرب كانت كتير بشعة وأنا مش قادرة عيش حرب تانية، ولا يرجع البلد إلى ما كان عليه».

هل اللّاجئات مُخيَّرات؟

تأتي قصص اللّواتي تمّت مقابلتهنّ لمصلحة هذه الورقة/التحقيق لتقول الكثير في خصوصيّة كلّ مُراهِقة عاشت الحرب والتهجير واللّجوء، إذ نادراً ما نجد قصَّةً تُشابِهُ الأخرى وتجربةً تتطابق مع تجربة، كما أنّ للبنية النفسيّة للمرأة، مهما صغُر سِنُّها أو كبُر،

دوراً جوهريّاً في كيفيّة تكيُّفها مع التغيير الذي فُرِض عليها واقتلعها من بيئتها ومُجتمعها وكامل حياتها، ورماها في مهبِّ الريح. ونعم تَرَك اللّجوء، وخصوصاً إلى مُجتمعاتٍ مُضيفةٍ تؤمِّن الحدَّ الأدنى أو أكثر من الحقوق وفُرص التعلُّم والتطوُّر، آثاراً إيجابيّة على حياة بعض المُراهقات، ولكنّه في معظم الأحيان يبدو كفعلِ تأقلُم مع تيّارٍ تغييريٍّ تجد المرأة فيه نفسَها غير قادرة على العودة إلى الوراء، إلى الحياة التي كانت، وعليه تعمل بالمَثَل القائل: «إنْ لم يكُن ما تُريد فأرد ما يكون».

بهذا المعنى يبدو اللّجوء معهنَّ مكمِّلًا للطريق التي بدأت مع إغلاقهنَّ بيوت منازلهنّ في بلدانهنَّ، الطريق التي لا يعرفْنَ نهايتها، هنَّ الضيفات في الغربة ليس لديهنَّ أيّ أجوبة عن إمكانيّة العودة إلى أوطانهنّ، وهل يمتلكْنَ الخيار من الأساس؟ وخصوصاً أنّهنّ سيبقينَ ضَيفات لاجئات مهما أمضَيْنَ من سنواتٍ في البلدان التي وَصَلْنَ إليها، وسط تقاليد وعادات وضَّبتها عائلاتهنّ مع الحقائب ولم تتركها في بيئتها الأساسيّة.

وخسارة الأوطان ليست تفصيلًا في حياة المُراهقات، وخصوصاً عند توافُر الوعي السياسيّ. فخسارة الهويّة قاتلة على الصعيد النفسيّ، وترتبط لدى بعضهنّ بالكرامة الإنسانيّة التي لا يُمكِن أن تُعوِّضَها تقديمات مهما كانت، على الرّغم مِن بروز أهميّة تكريس حقوق اللّاجئات بالتعلّم والتطوّر وبالعيش الكريم في التخفيف من الآثار السلبيّة للحروب وذيولها، وهو الأمر الذي يُبرِز الدورَ المهمَّ للمنظّمات والجمعيّات التي تقود برامج ومشروعاتٍ داعمة لهنَّ كنساء بعامَّةٍ، وكمُراهقات بشكلٍ خاصّ، حيث يبدو تأثير الأخيرة جليّاً في تغيير الكثير، ولاسيّما إذا ما تناسب مع احتياجاتهنَّ الأساسيَة.